جامعة القرويين

كلية أصول الدين

بتطوان

د . أحمد مونـة

أستاذ المنطق والأصول

مقومات وآفاق الأخلاقية المؤيدة في " سؤال الأخلاق " للدكتور طه عبد الرحمان

يتصدر كتاب " سؤال الأخلاق " للفيلسوف والمفكر المغربي الدكتور طه عبد الرحمان ، قائمة الأبحاث التي تحظى بأهمية مركزية على صعيد النقد الأخلاقي لمنظومة " القيم التي أفرزتها الحضارة الغربية " فبالإضافة إلى ما يتسم به هذا الكتاب من دقة منهجية ، وعمق في التناول وتجديد في النظر ، فغنه يمثل دعامة للفكر الأخلاقي الإسلامي المحرر على شروط المناهج العقلية والمعايير العلمية المستجدة . واعتبارا لمل ذكر فغننا سنحاول في ما يلي وضع اليد على أهم المرتكزات التي تؤسس للنظرية الأخلاقية الإسلامية كما يحددها الدكتور طه عبد الرحمان .

1 ـ دواعي التأمل في الممارسة الأخلاقية الغربية الحديثة :

يرى الدكتور طه عبد الرحمان أن هناك ثلاثة اعتبارات تجعل المفكر المسلم في حاجة ماسة إلى أن يتأمل في الممارسات الأخلاقية عموما ، وذلك في أفق صياغة نظرية أخلاقية تفي بشروط ومقتضيات الخطاب الشرعي من جهة ، وتستجيب من جهة ثانية للشرائط المنهجية والمعايير للفلسفات الأخلاقية الغربية الحديثة :

الاعتبار الأول ومؤداه أن الخروج من أفات الضرر الخلقي الذي تحمله حضارة اللغوس إلى الإنسان لا يمكن أن يتم " بمجرد تصحيحات وتعديلات يدخلها المفكر على هذه الحضارة " وذلك لقصور هذه العملية في نظره ، عن محو آثار تلك الآفات الأخلاقية . وعجزها من ثم عن منع ظهور افسادات قد تلزم عن عملية التصحيح هاته ، وإنما يتم بطلب أخلاق عميقة يكون السلطان فيها للايتوس ص (146) بحيث تتحدد بمقتضاه حقيقة الإنسان الأخلاقية ، والتي تعد في نظر الكاتب أخص الحقائق بالإنسان " بل هي وحدها التي تجعل أفقه مستقلا عن أفق البهيمة " ص (14) .

الاعتبار الثاني ومقتضاه أن عالم اليوم مقبل على تحول أخلاقي عميق " وذلك بسبب التحولات المتلاحقة والعميقة التي تمس كل مناحي الحياة فرديا واجتماعيا ، وهو ما يفتح الباب أمام سادة هذا العالم لوضع نظام أخلاقي عالمي جديد على غرار النظام التجاري العالمي الجديد " .

الاعتبار الثالث يسجل الدكتور طه بصدده الغياب الكلي للمقاربات المنهجية التي تروم تجديد النظر في الأخلاق الإسلامية على نحو يضاهي الفلسفات الأخلاقية الغربية الحديثة ويملك القدرة بالتالي على مواجهة التحدي الأخلاقي المقبل .

مسلمتا النظرية الأخلاقية الإسلامية عند الدكتور طه عبد الرحمان :

أخذا بالاعتبارات السالفة يرسم الدكتور طه عبد الرحمان المعالم الأساسية للنظرية الأخلاقية الإسلامية وذلك من خلال مسلمتين اثنتين :

1 ـ مسلمة الصفة الأخلاقية للإنسان : وهي المسلمة التي يرتب عليها الدكتور طه ثلاث حقائق :

ـ الأولى أن هوية الإنسان هي هوية أخلاقية.

ـ والثانية أن هذه الهوية ذات طبيعة تراتبية .

ـ والثالثة أنها هوية متغيرة، بحيث " يكون للإنسان بمقتضى هذا التغير من وصف الإنسانية على قدر ما يتحقق به من المعاني والقيم الأخلاقية " ص (147).

2 ـ مسلمة الصفة الدينية للأخلاق : يؤكد د . طه عبد الرحمان بصدد هذه المسلمة أن انبناء الأخلاق على الدين يتم وفق طريقين اثنين ، طريق مباشر وهو طريق الوحي الإلهي ، والتأسي بالنموذج الحي لتطبيق تعاليم هذا الوحي (السيرة النبوية) وطريق غير مباشر ، ويتم عبر استفادة هذه الأخلاق من الدين . ولا يطعن في هاتين المسلمتين حسب الكاتب ـ إخراج البعض للأخلاق عن وصفها الديني ، أما بالسكوت المبيت عن أصلها " أو إخراج أخلاق وضعية باعتماد مسلك القياس على الأخلاق الدينية " (148) لأن " هوية الإنسانية هي في حقيقتها هوية دينية " (149) .

3 ـ الموانع المعرفية لقيام نظرية أخلاقية إسلامية :

المانع الأول : ويقوم على مسلمة الفرق بين العقل والشرع ، وهي التفرقة التي ظهرت في الممارسة الفلسفية الإسلامية بفعل استئناس فلاسفة الإسلام ببعض الأفكار اليونانية التي انتشرت وترسخت في العقول عن طريق المقاربات التي اعتمدها رواد المدارس اللاهوتية في التوفيق بين الحكمة اليونانية والشريعة الإسلامية . وهو طرح ينطوي ـ كما يقول الكاتب ـ على التمييز اليوناني وخاصة الأفلاطوني بين اللوغوس " القول الذي يضعه الفيلسوف لخاصة الناس " وبين الميتوس " القول القصصي الخيالي الذي يضعه الشاعر لعامة الناس " ص (150) .

المانع الثاني: ويقوم على مسلمة الفرق بين العقل والقلب. إذن تحت تأثير مفاهيم الفلسفة اليونانية عمد فلاسفة الإسلام إلى التمييز بين العقل والقلب، حتى شاع بينهم القول، بأن الأول ذو وظيفة معرفية، وأن الثاني ذو وظيفة وجدانية. ولقد كان لهذا التمييز أثر بين في حصر علماء الإسلام وظيفة القلب في كونه محلا للاعتقاد أو النية وهذا التمييز مخول حسب الكاتب من جهتين :

1 ـ من جهة كونه يؤدي إلى تشييئ العقل ، وهو أمر بالإضافة إلى غرابته ، فان أدلة النسق الشرعي تفيد على العكس من ذلك عدم إمكانية هذا التشييئ ، لأن الفعل " عقل " جاء في هذا النسق مستندا إلى القلب . وذلك بوصفه الفعل الذي يختص به هذا الأخير، تماما كما تختص العين بفعل النظر وتختص الأذن بفعل السمع .

2 ـ من جهة كونه أدى إلى الغلو في تفقيه الممارسة الدينية ، وذلك عن طريق النظر في مدى موافقتها أو مخالفتها للأحكام المقررة ، حتى ولو كان ذلك على حساب المعاني الخلقية التي تنطوي عليها هذه الأفعال ، والحقيقة أن الأصل في الحكم الفقهي هو تحقق المكلف بقيمته الخلقية (1) المانع الثالث : ويقوم على مسلمة الفرق بين العقل والحس ، وهي التفرقة التي اكتسبت في الممارسة الإسلامية صفة خلقية ـ حسب المؤلف ، وذلك بفعل تغلغل المنقول اليوناني في المعرفة الإسلامية ، وتأسيسا على هذه التفرقة اعتبر المعقول أشرف من المحسوس ، وهو التصور الذي يعترض عليه الدكتور طه من زاويتين :

أولاهما : أن هذه التفرقة لا أصل لها في الشرع بل إن الشرع يصل بين العقل والحس وصلا قويا بحيث ينظر الى الحس بوصفه عقلا ، فكما أن في الحس عقلا فكذلك في العقل حس ، مادامت أفعال الإدراك الحسي مصدرها القلب ، ومادام الفعل المميز للقلب و" العقل " يكون مجانسا بوجه من الوجوه لهذه الأفعال الإدراكية " ص 155 ـ اصطبغت بها المعرفة البشرية في مجملها .

4 ـ حدود وأركان النظرية الأخلاقية الإسلامية عند الدكتور طه عبد الرحمان :

يرى د . طه أن الممارسة الأخلاقية عموما قد تسلك احد الطريقين :

1 ـ طريق الإلزام الذي يفرض من خارج إرادة الإنسان .

2 ـ طريق الاعتبار الذي يعتمد مسلك الاستنباط التلقائي مما يشاهد من الأفعال ويتلقى من الأقوال ليستنتج أن انسب الطريقين للإنسان المنتظر هو طريق الاعتبار ومر ذلك إلى سببين اثنين:

السبب الأول: شدة تشبث الإنسان المنتظر بالحرية، وشدة رغبته في صدوره عن إرادته في كل أفعاله.

السبب الثاني : إن الحياة الخلقية للإنسان هي وحدة من الأفعال التي تشكل تاريخا خاصا بصاحبها ، بحيث يكون كل فعل خلقي عبارة عن حدث في هذا التاريخ الذي ينطوي على هويته منذ الولادة إلى الوفاة .

ومن اجل تخطي الموانع المعرفية التي حالت دون قيام نظرية أخلاقية إسلامية يعمد د . طه عبد الرحمان إلى تجميع ما تم تفريقه في الممارسة الأخلاقية غير الإسلامية ، اعني الفرق بين العقل والشرع والفرق بين العقل والقلب والفرق بين العقل والحس . فما هو المسلك الذي يعتمده الدكتور طه في هذا الجمع .

يرى د . طه إن الجمع بين العقل والشرع يعود في أصله إلى التعهد الذي حدث في عالم الغيب عندما سأل الله كافة بني آدم قائلا : " ألست بربكم ، قالوا بلى " سورة الأعراف (172) مسجلا بذلك أن خصوصيات الأخلاق التي ينتجها هذا الميثاق هي :

أولا: كونها أخلاقا مؤسسة (بفتح السين) أسسها الشرع ، نظرا لعلو رتبته على العقل ولاستغنائه بنفسه .

ثانيا : كونها أخلاقا متعدية إلى العالم كله ، وذلك لأنها تتقصد صلاح البشرية قاطبة . (158)

ثالثا: كونها أخلاقا شاملة لكل أفعال الإنسان ذلك لأن كل فعل عقلي يصبح فعلا خلقيا بموجب الميثاق الأول (159) .

1 ـ انظر في ذلك كتابه : تجديد المنهج في تقويم التراث 97 ـ 116 ط 1994/4 م ث ع .

أما بخصوص الجمع بين العقل والقلب ، فان الدكتور طه يرى أن مفهوم هذا الأخير في الممارسة الإسلامية يحيل إلى مونه ذاتا كامنة في الإنسان تعبر عن حقيقته ، وعنها تصدر كل أفعاله بحيث إذا صلحت هذه الذات صلح الإنسان كله ، وإذا فسدت فسد الإنسان كله ، واعتبارا لأهمية هذا الجزء الخفي من الإنسان ، وخاصة بالنسبة " للإنسان الأول " (ص 160) الذي ينقسم إلى نوعين إنسان الفتح ، الذي هو أبو البشر الذي تلقى أول طور من أطوار تحقيق ميثاق الجمع بين العقل والشرع . " والإنسان النموذجي أو إنسان الختم " الذي تلقى آخر طور من أطوار هذا التحقيق، ألا وهو سيد البشر محمد (ص) . واعتبارا كذلك لأهمية هذا الطور النهائي بوصفه أكمل الأطوار وأتمها .

استوجبت هذه الذات الخفية قدرا من العناية ، وذلك حتى يتحقق لإنسان الطور الخاتم تحصيل مواصفات " النموذج الحي " ولقد تم له ذلك ـ كما يرى الدكتور طه ـ في حادث شق الصدر فما هي خصائص الأخلاق التي أنتجتها هذه الحادثة . يرى الدكتور طه عبد الرحمان :

أ ـ أن أخلاق شق الصدر أخلاق تطهير : ففي هذه الحادثة أجريت للإنسان النموذجي " عملية " تم بمقتضاها استخراج علقة سوداء بقلبه . وتولى إجراء هذه العملية رسول خاص جاء من عالم الميثاق الأول " مما يفيد ـ في نظره ـ أن خروج المرء من دائرة الهوى إلى دائرة العقل المحض لا يمكن أن يتم بدافع من الإرادة الذاتية . ذلك لأن الهوى قد يأخذ عند صاحبه صورة العقل فيتصور له بسبب ذلك الباطل بصورة الحق .

ب ـ انها أخلاق تأهيل : ذلك لأنها كانت تتقصد تهيئ القلب للاقتدار على تلقي أمر جلل ، إلا وهو الطور الخاتم من أطوار تحقيق الميثاق الأول . إذ بهذا الشق ـ يقول الدكتور طه ـ يصير القلب حتما محلا للعقل وتوابعه من المعرفة والتفكير والتذكر ، بل وتصبح عقلانية الإسلام بمقتضى هذا التأهيل أسمى عقلانية ممكنة .

ج ـ انها أخلاق تجديد : إذ لما كان حد التجديد ـ حسب د . طه ـ يروم الأصل وينزل على الباطن ، فإن فعل استخراج العلقة من القلب وغسله بماء مطهر هو تغيير في أصل الإنسان وباطنه ، ولذلك كانت الأخلاق التي يرثها مطهر القلب أخلاق أصيلة . وبهذه الأخلاق يصبح الإنسان إنسانا جديدا حقا.

أما عن الصلة بين العقل والحس في نظر الدكتور طه فهي بالذات الصلة بين العقل والجهة اعتبارا لكون المراد بالمحسوس هو وجوده على الأقل في إحدى الجهات الست . وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد للعقل الذي أزدوج بأخلاق الميثاق الأول من أن يتبين كيف يزدوج بالجهة الأنسب إلى كماله. وهنا يقرر أن " أكمل هذه الجهات هي جهة القبلة باعتبارها الجهة التي تستقبل إليها الصلاة (ص 163) . وتتصف أخلاق القبلة هاته بالخصائص التالية حسب الدكتور طه :

أ ـ أنها أخلاق إشارية: لان شكل الكعبة " المكعب " هو شكل بالغ الدلالة على مفهوم المكان حتى أنها سميت بيتا. ومعلوم أن الإنسان لا يتحقق بطبيعة المكان في شيء، مثلما يتحقق بها في البيت الذي يسكن فيه.

ب ـ أن فضاءها كان متضمنا الكثير من الأصنام التي بقيت ذكراها عالقة بالأذهان. (ص 163) .

ومن ثم يكون الأمر بالتوجه إلى القبلة ـ في نظر الدكتور طه ـ هو بالذات مطالبة المتوجه بأن يخرج من محسوسية القبلة إلى معقولية التعبد ، أي إلى العمل بمقتضى الدلالة الاشارية لهذا الأمر .

فكمال التخلق إذن عبارة عن كون الإنسان لا يرى شيئا محسوسا في الكون إلا ويرى فيه معنى معقولا.

ج ـ أنها أخلاق انفعالية: وذلك لاتصاف القبلة بخاصيتين:

الأولى الاستقبال، لأن المصلي يستقبلها في الصلاة.

الثانية: المقابلة فهي الجهة التي يقابلها وتقابله، وفي كلتا الحالتين يتحقق انفتاح المتوجه على المتوجه إليه.

وعليه، فإذا كان المتوجه إليه حسا هو البيت وعقلا هو حامي البيت، فان هذا الانفتاح يصبح انفع أشكال الانفتاح وأوجبها للأدب (165).

د ـ انها أخلاق اجتماعية : ينصرف القول بكون القبلة مركز اجتماع المسلمين معنيين اثنين في نظر الدكتور طه : الأول بمعنى الوجهة التي يستقبلها أهل الميثاق من المسلمين . والثاني بمعنى الوجهة التي يقصدها أهل الاستطاعة منهم (166) بحيث يكون جمعهم العظيم هذا شبيها بالجمع الغيبي الذي تحقق يوم الميثاق الأول، ويرتب د . طه على هذه المقدمات نتيجة مفادها ان استحضار القبلة عقلا عدة مرات في اليوم ، وبالكون معها حسا مرة في كل عام .. هو تربية للمسلمين على روح الجماعة وعلى التخلق بأخلاقها على شرط الميثاق الأول.

ـ وعلى الجملة فان وصف أخلاق القبلة بكونها أخلاقا إشارية ، وأخلاقا انفتاحية وأخلاقا اجتماعية يجعلها ـ حسب د . طه ـ الأخلاق الأصيلة بحق .

في ضوء ما سلف ، يتضح أن القراءة التي يقدمها هذا الكتاب لقضايا الفكر الفلسفي الأخلاقي ولأدلة النسق الشرعي ، وكذا لأحداث السيرة النبوية ، والتي تتسم بالعمق في التجليل ، وبالبناء المنطقي الرصين ، تجعل من هذا الفيلسوف الكبير أحد أبرز رواد الفلسفة الأخلاقية الإسلامية في وقتنا الراهن ، وحسبنا دليلا على ما نقول ، أنه لم يسلك في تشييده لأركان النظرية الأخلاقية الإسلامية مسلك النقل والتقرير ـ كما هو شائع ـ وإنما سلك في بنائها طريق الاجتهاد والتنظير ، متوسلا في سبيل ذلك بآليات الاستدلال التناظري الحجاجي التي تستحيل في يد هذا الفيلسوف المجدد إلى بليات موسومة بالكثير من الخصوبة والثراء .

طه عبد الرحمان

ـ سؤال الأخلاق في النقد الأخلاقي للحضارة الغربية ـ

المركز الثقافي العربي ط 1 - 2000